طارق العريس يروي الحرب اللبنانية الموضّبة في حقيبة الهجرة

سلمان زين الدين | الخميس 2026/03/19

"أهل الماء والنار" رواية سيرية، تُغرق وتحرق في الوقت نفسه

مشاركة عبر

حجم الخط

إعلان

يتّخذ الباحث والأكاديمي اللبناني المقيم في الولايات المتّحدة الأميركية، طارق العريس، من حياته الشخصية مادّة أوّلية لكتابه "أهل الماءِ والنار"، الصادر عن دار الآداب في بيروت، بتعريب ديمة حمادة، ويقوم بتشكيلها في إطار روائي، فيطرح، من حيث يقصد أو لا يقصد، سؤال النوع الأدبي الذي ينتمي إليه الكتاب. هل هو سيرة ذاتية أم عمل روائي؟ وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال، يمكن القول إنّ الكتاب، بما يشتمل عليه من وقائع تتعلّق بحياة الكاتب الشخصية، من حيث تحدّره من أسرة بيروتية، لأبٍ طبيب وأمٍّ ربّة منزل، ودراسته في مدرسة الليسّيه الفرنسية وفي الجامعة الأميركية لاحقًا، وشهادته الحرب الأهلية اللبنانية في الثمانينيات من القرن الماضي، وتنقّله بين بيروت وساحل العاج والمملكة المتّحدة والولايات المتّحدة بداعي الدراسة أو العمل، وتخصّصه الأكاديمي في الفلسفة والأدب المقارن، هو سيرة ذاتية. وإنّ الكتاب، بتوزيعه هذه الوقائع على سائر الفصول، وفق اعتبارات فنّيّة، لا تأخذ بعين الاعتبار تاريخ حصولها، وتضرب بالخطّيّة الزمنيّة للسيرة الذاتية عُرْضَ الحائط، وبتحويله الكاتب إلى شخصية روائية، هو رواية بامتياز. وعليه، نكون إزاء محتوًى سِيَري وإطار روائي، ما يجعل الكتاب رواية سِيَريّة، بكلّ معنى الكلمة .

حزمتُ الحرب مع الكتب والثياب

بمعزل عن السؤال الأجناسي المطروح أعلاه، يرصد طارق العريس في "أهل الماءِ والنار" تداعيات الحرب الأهلية اللبنانية على صاحب السيرة أو بطل الرواية، وهو ما يتمظهر في حالة عدم الاستقرار التي يعيش، وشعوره بأنّه المطارَد الدائم، وتوهّمه بأنّ ثمّة حشرات تحت جلده تسبّب له حكّة مزعجة، واختلافه إلى طبيب نفسي للمعالجة. وهو ما يعبّر عنه في نهاية الرواية بالقول: "بدأت أفهم كيف حوّلتني الحرب والمآسي إلى مطارَد يخشى المكوث طويلاً في المدن، وفي العلاقات، وفي البيوت، وفي المكاتب" (ص 241). وتتمظهر تداعيات الحرب أيضًا في ملازمتها إيّاه طيلة حياته، في حلّه وترحاله، في إقامته

المدن
جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى

وغطسًا وسيرًا على رؤوس الصخور المدبّبة حتى أشعر بوخزها في باطن قدميّ وأنا أهمّ للقفز في بحر بيروت" (ص 227). وعليه، تكون آثار الحرب في الرواية متمادية في الزمن. تتعايش معها الضحية لكن يستحيل الشفاء منها.

تخلّوا عني

في المحتوى السيري، يتناول العريس جوانب من سير أفراد الأسرة؛ بدءًا به شخصيًّا، مرورًا بالأمّ والخالة شفيقة والجدّة خيرية والعاملة المنزلية بهيّة، وانتهاءً بالأب. ولكلّ منهم حضوره النصّي وعلاماته الفارقة، على تفاوت ما بين شخصية وأخرى، وتشغل شخصية الأب المساحة النصّيّة الأكبر بين هذه الشخصيات باستثناء الشخصية المحورية، بطبيعة الحال؛ فالأمّ مهووسة بالعادات الصحّية، مثابرة على قراءة كتب صبري القبّاني الطبّية، ومهجوسة بانقطاع المياه، خلال الحرب، فتقوم بتخزينها في قناني، وتتركها حتى تتكرّر. تقتصد في التعبير عن عاطفة الأمومة. تترك ابنها الوحيد يسافر وحيدًا إلى ساحل العاج، فيما تسافر هي إلى شقيقتها في الولايات المتحدة، ما يعتبره الابن تخلّيًا عنه. والخالة شفيقة، السبعينية المقيمة مع أسرتها في الطريق الجديدة، تحرص على طهو الأطباق البيروتية القديمة لا سيّما المفتّقة، وتستحضر أرواح من رحلوا من أفراد الأسرة، وتبدو سليلة نسوة خارقات.

والجدّة خيرية، ناجية من الحرب الكبرى، ومهووسة بجمالها، مهتمّة بالموضة على سبعينيّتها، حريصة على أناقتها، مؤثّرة فيمن حولها، ذات نزعة استبدادية تكسبها احترام أولادها ومحبّتهم لها، إلى حدّ العبادة. والعاملة المنزلية بهيّة، القادمة تهريبًا من الساحل السوري، تتحوّل إلى فرد من الأسرة، تلازمها في الحلّ والترحال، تبدي اهتماماً كبيرًا بالكاتب، منذ ولادته، وتحنو عليه، فيتعلّق بها أكثر من أمّه، ويدين لها بما هو عليه. والأب الذي نشأ يتيمًا في كنف زوج أمّه الضابط المسيحي من عمشيت يغدو طبيبًا وجرّاحًا وقاصًّا مرموقًا، بفضل فرص التعلّم المتقدّمة التي أمّنها له ولأخويه زوج الأم، فيّحقّق إنجازات أكاديمية ورياضية يفخر بها. وهو مضياف، أنيق، محبٌّ للحياة، ومتعلّق بأولاده.

المعالجة النفسية

في الإطار الروائي، تتمظهر الروائية في المسار الدائري للأحداث المرويّة. يبدأ النص من حيث تنتهي الأحداث في العام 2001، بحيث نرى طارق، صاحب السيرة، يختلف إلى المعالجة النفسية، في حي "أبّر ويست سايد" النيويوركي، التي ما إن تعلم أنّه آتٍ من بيروت، حتى تطلب منه أن يتكلّم عن الحرب، في إشارة ذكية منها إلى أنّ ما يعانيه، من استنزاف نفسي، إنّما هو ناجم عن الحرب الأهلية اللبنانية وتداعياتها. وتتمظهر الروائية في تحويل طارق إلى شخصية روائية محورية، يتولّى الراوي العليم حكي حكايته، على أريكة المعالجة النفسية، ما يجعل من المرويّ نوعًا من العلاج النفسي، حتى إذا ما شارف الحكي نهايته، يكون المعالَج قد تحرّر من رواسب الحرب واقترب من مرحلة الشفاء، وهو ما تشي به الجملة الأخيرة التي يختم بها الكاتب روايته: "ثم تخرج شمس الصباح، ويخرج الأولاد ليلعبوا"ص.243

الحرب والبحر

ملاذًا له، يهرع إليه، يجمع الأصداف ويصطاد السمك ويمارس هواية السباحة، حتّى إذا ما أُصيب الشابّ العشريني أحمد، ابن أصدقاء الأسرة، خلال حرب المخيمات، برصاصة طائشة في رأسه، أدّت إلى وفاته، بعد عشر سنوات من الموت السريري، شكّلت تلك الواقعة نقطة تحوّل في حياة طارق، وله من العمر يومها اثنا عشر عامًا، ترسله الأسرة إلى ساحل العاج ليقيم عند أخيه، ويتابع الدراسة في مدرسة ليسّيه بليز باسكال الفرنسية، في أبيد جان، بعدما كان قد درس في مدرسة الليسّيه الفرنسية في فردان.

هناك، أقبل على قراءة الأعمال الأدبية التي تغذّي نزوعه المبكّر إلى التمرّد والاختلاف، وينخرط في علاقات عابرة للأعراق والأوطان مع مجايليه، حتى إذا ما عاد إلى لبنان، التحق بالجامعة الأميركية لدراسة الفلسفة التي تغذّي رغبته في تحرير مكبوتاته، ونزوعه إلى التمرّد وطرح الأسئلة، ويعمل على تجسيد تلك الفلسفة، بالاشتراك مع صديقه رزان، في سلوكيّات خارجة عن المألوف، ممّا يدخل في باب "الزعرنة الفكرية"، ويقع مع آخرين تحت تأثير أستاذة فلسفة الفن الأرمنية "الست الشيطانة" التي تزرع في أتباعها فيروس الحرّية.

وحين يعود إلى جادّة الصواب، وقد أنهى دراسته في الجامعة الأميركية، يسافر إلى الولايات المتحدة، في العام 1994، وله واحد وعشرون عامًا، ويلتحق بجامعة روتشستر لدراسة الماجستير، وينتقل لاحقًا إلى إيثاكا للحصول على الدكتوراه من جامعة كورنيل. وعلى الرغم من هذه الإنجازات، لم يستطّع التخفّف من أثقال الحرب وتداعياتها، حتى وجد نفسه يختلف إلى عيادة المعالجة النفسية، في حي "أبّر ويست سايد" النيويوركي.

من الحرب اللبنانية إلى 11 أيلول

هذه الوقائع السيرية يضعها طارق العريس في قالب روائي، يطيح بخطّيتها الزمنيّة، ويشكّل أحد تمظهرات الروائية. على أنّ الكاتب كثيرًا ما يلجأ إلى وضع هذه الوقائع في أطر عامّة تشكّل الخلفيات التاريخية للأحداث، بدءًا من الحرب

الشخوص المكمّلة المذكورة أعلاه، بحيث تتوزّع السيرة الواحدة على فصول عديدة، كما في حالة الأب، أو تخضع لاعتبارات روائية لازمنية في توزيع وقائعها على الفصل الواحد.

وعود على بدء، "أهل الماء والنار" رواية سيرية، تجمع بين الماء والنار على سطح واحد. تغرق وتحرق في الوقت نفسه، ما يجعل قارئها يخرج منها وقد ابتلّ بعضه بماء الفائدة، واحترق بعضه الآخر بنار المتعة.

مقالات اخرى للكاتب

"ليلة السكاكين": تخليق الأسطورة ثم قتلها

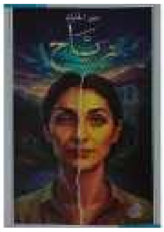

"زيّاح" منير الحايك: مار الياس مُنقذاً أوحدَ بعد هيمنة العجز

فاتن المر تحصر إرث بيروت

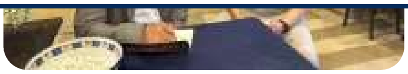

الأكثر قراءة

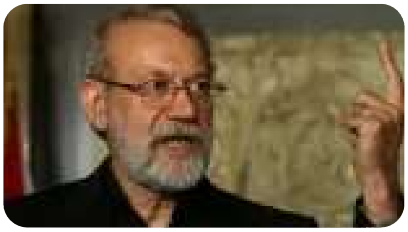

علي لاريجاني: الكانطية لم تخفف حدّة "حرسيّته"

في خضمّ الحرب نسأل: ما قيمة الإنسان؟ وأي معنى للحياة؟

فيليب عرقتنجي يعرض "أسرار مملكة بيبلوس" في اللوفر

"لبنان وسوريا" بعينَي ساطع نور الدين: ضد الاستسلام للتاريخ

جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى

إعلان

تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي

إشترك في النشرة الإخبارية ليصلك كل جديد

اشترك معنا في نشرة المدن الدورية لتبقى على اتصال دائم بالحدث

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك الآن

إعلان

جريدة "المدن" الإلكترونية جريدة إلكترونية مستقلة مقرها بيروت تمثل التيار المدني اللبناني والعربي

روابط سريعة

معلومات

النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون من المطلعين على الخبر في لحظة ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك